مجلة المجلات

درس الآداب العربية الحديثة

نشر المستشرق اغناطيوس كراتشقوفسكي ، في مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق : كانون الثاني ١٩٣٠ ، ص ١٧) بحثاً ضافياً في «درس الآداب العربية الحديثة ، ومناهجه ، ومقاصده في الحاضر» اودعه الملاحظات القيّمة عن تقصير ادباء العرب ، في الشرق والغرب ، في ما خصّ الاهتمام بآدابهم الحديثة. وبعد ان قدّم كلاماً في صلاحية تقسيم تاريخ الآداب الى اطوار ، قسم ملاحظاته الى ثلاثة اقسام : ١ً قلة الابحاث في تاريخ الآداب العربية الحديثة . ٢ً احوال الابحاث في تاريخ الآداب بين الامم الاخرى . ٣ً تنوع المناهج والاساليب لدرس تاريخ الآداب في الحاضر . وقد رأينا ان نقتطف شيئاً من توطئته ، قال (ص: ١٨) :

ولسائل ان يسألنا سؤالاً ثانياً هل يجوز إفراد طور مخصوص نسميه طور الآداب الحديثة وهل هو الا صلة الأطوار المتقدمة ولا فرق بينها. ويحق له ان يسأل ذلك لان تفريق الاطوار في حياة كل فرد او مجتمع او فكر شيء خطر . وكل طور يتصل باخيه بطريق خفي ومخيوط لا ترى ولا حدّ محسوس بين طور وطور وقد قلنا سابقاً انه لا فرق بين مناهج درسه . ومع ذلك فانا لا نرى انساناً او نباتاً يشبه نفسه في أطواره المختلفة تمام المشابهة وعليه فلا مندوحة لتقسيم حياته الى أطوار كما لا مندوحة لاطوار في تاريخ اي شيء كان وان كانت الاطوار بنايات خيالية تبنيها الافكار تسهيلاً للدرس والنظر الاجمالي. ولا يشك احد ان الطور الجديد لا يبتدئ من نقطة محسوسة معيّنة بل يتدرّج عمّا قبله تدريجاً. وهذا لا يمنعنا من ان نأخذ وقعة تاريخية حدّاً لطور ما ولاسيما اذا كان لهذه الوقعة تأثير ظاهر في الطور القديم . وفي تاريخ الآداب العربية الحديثة نرى وقعة من هذا الجنس وهي حملة الفرنسويين على مصر بقيادة نابوليون التي جرّت على الشرق العربي نتائج جمة منها سياسية ومنها اقتصادية ومنها ادبية ووصلته باوربة بصلة لم تنقطع في وقت من الاوقات الى ايامنا هذه . نعم ان المواصلات في الشام وان كانت بدأت مع اوربة قبل القرن التاسع عشر بكثير الّا انها توطدت بعد فتح المدارس المتنوّعة وخصوصاً في

لبنان وبيروت . وهذا ما يدعونا لان نبتدىء بدور الآداب العربية الحديثة من النصف الاول للقرن الماضي .وان لم نقل ما قلناه سابقاً من وجوب الاحتياط في تقسيم الاطوار وعن عدم الفرق في مناهج البحث كلها .

الانفراد بالرأي في الادب

وفي المجلة نفسها (شباط ١٩٣٠ : ص٩٢) باشر الاستاذ شفيق جبري طبع سلسلة محاضرات كان قد القاها في كلية الآداب ، في دمشق . نشر منها في هذا العدد ثلاثاً خصّ الاولى « بالادب : انفته . فعله . غايته » ، والثانية «بثقافة الذوق : دراسة المصادر الادبية . الانفراد بالرأي في الادب» ، والثالثة « بتمازج الثقافات» . فكان في اكثرها مرآة للاستاذ غوستاف لانسون ، الناقد الفرنسوي المعروف ، فوسّع بعض آرائه مقرّباً اياها من متناول سامعيه ، باسلوب واضح ضمّنه الكثير من الحقائق البديعية التي ، ان افادت مجمل الطلّاب ، فقد لا تفيد كثيراً جمهور الادباء ، ومعرفةُ هذه الحقائق مقرونة عندهم حتى يظهر أن التوسع فيها ، والبرهان عنها ، من باب تحصيل الحاصل . على اننا لا نلوم الاستاذ جبري في ذلك ، لان الاعمال بالنيات ، ونيته صالحة . ولكننا نود ان نذكر بعض الملاحظات ، لا على تحديده للأدب ، ولا على عدم تحديده للذوق ، فمجالنا اليوم اضيق من ان يتسع لذلك ، بل على آرائه ، او آراء لانسون ، في ما خصّ « الانفراد في الادب» . نقل الاستاذ رأياً للانسون في هذا المعنى وعلّق عليه قائلاً (ص ١٢) :

هذا ما قاله لانسون ومن قوله هذا يتبين لنا اننا اذا اردنا الكلام على المتنبي مثلاً لزمنا ان ندرس شعر المتنبي نفسه دون ان نردد ما قاله فيه بعض الاساتذة كالثعالبي والجرجاني وغيرهما ، اذا اردنا الكلام على حسّ المتنبي لزمنا ان ندل على مواطن هذا الحس وعلى طبائعه من دون ان نستعير كلام غيرنا والخلاصة اذا حاولنا دراسة المتنبي وجب علينا ان نقرأ شعره وندون الآثار التي تركها فينا هذا الشعر وننقل هذه الآثار الى غيرنا حتى يكون في كلامنا شيء من الروح والحياة وعلى هذا ينمو ذوقنا في الادب ومتى نما هذا الذوق نما معه الشعور بالجمال .

اني لا ارى اضل سبيلاً من الذين لا يريدون ان ينفردوا بآرائهم في الادب . وعلى الخصوص بعد ان عرفنا ان الادب ليس فيه حقائق مبنية على اصول مستندة الى عقل اي ليس فيه شيء من حقائق العلم الثابتة وانما الادب يتبع الذوق والعاطفة فتتغير آراء الناس فيه بتغير اذواقهم وعواطفهم انظروا

مثلاً الى « فيكتور هوغو » فقد قال فيه « فاكه Faguet » « هوغو من الخالدين لان جمال الاسلوب هو الذي يخلد » وقال فيه اناتول فرانس : « ان مجد الشاعر الذي احتفل امس آخر احتفال بوفاته يأتي عليه اليوم دهر صعب حرج لقد ذهب اعجاب المعجبين به الذين كلوا واعيوا بعد ان جهدوا في ذلك الاعجاب خمس عشرة سنة ، وتبددت طائفة من الاوهام فقد كانوا يظنون ان شاعراً كبيراً فكر اكثر من ذلك » . انظروا الى تناقض هذين الرأيين في شاعر مثل « هوغو Hugo » ومنه يتبين لكم قلق الادب واضطرابه فاذا كان الامر كما وصفنا فما أجدر الذين يريدون ان يذوقوا لذة الادب بالانفراد بآرائهم دون ان يكون لغيرهم سلطان عليهم .

لا يخفى على الاستاذ الفاضل ان في الفنّ الادبي طائفة من العوامل «مستندة الى العقل» خالدة بخلود الجمال ، لان الادب لا يقوم فقط «باتباع الذوق والعاطفة» والا فهو متقلقل مضطرب ، ولا يخفى عليه ان هذه العوامل تؤثر فينا ، عند درسنا كاتباً او شاعراً ، الاثر نفسه التي تكون قد اثرته في من تقدمنا من الدارسين . فمن باب اضاعة الوقت اذاً ان ينفرد كلّ منا في احكامه ، وان يبدأ عسر النقد الادبي بنفسه . هذا فضلاً عن انه ليس لكل ناقد من حسن الذوق ما يكفل له الوصول الى الحقيقة النقدية في انفراده الشخصي ، وان يكن هذا المذهب قد نجح مع جول لومتر ، او من هم على شيء من ذوق جول لومتر ، فلا ينجح مع الكثيرين غيره . من الحسن ان نستقلّ بالحكم الشخصي ، ولكن ذلك يكون بعد الاطلاع على احكام من تقدمنا . لانه لو لم يكن في عرض رأينا على رأي الغير الا تنجيتنا من الادعاء والتبجح بمقدرتنا على اكتشاف كل شيء ، لكفى !

اما مثل الخلاف بين فاغيه وفرانس في الحكم على فيكتور هوغو الذي اختاره الاستاذ جبري وظنه حجة لكلامه ، فهو ابعد من ان يؤيد ذاك الرأي . ومن الغريب ان لا يرى الاستاذ ان الخلاف بين الناقدين كان سببه اختلاف وجهة النظر ؛ بل لاختلاف بينهما ، اذ ان الخلاف والاتفاق لا يكونان الا بالنسبة الى شيء واحد مشترك بين الامرين . ونحن نرى ان فاغيه نظر الى اسلوب هوغو ليس غير ، واصدر حكمه بالنسبة الى هذا الاسلوب فقال : « هوغو من الخالدين لأن جمال الاسلوب هو الذي يخلّد . » اما اناتول فرانس فنظر الى قيمة الشاعر الفكرية ، ولما رآها ضئيلة ، اصدر حكمه الشديد ، فبدّد « طائفة من اوهام من كانوا يظنون ان شاعراً كبيراً فكّر اكثر من ذلك » . ولو اورد لنا الاستاذ حكم فرانس على اسلوب هوغو ، او حكم فاغيه على قيمة هوغو الفكرية لكان مجال للمقابلة ، فللخلاف او للاتفاق .

ومهما يكن من امر فاننا نسرّ كل السرور اذ نرى اخواننا ادباء دمشق ينصرفون عن التقليد العقيم ، فيحوّلون ابصارهم الى الامام . . .

ف . ا . ب .